اعتمادا على هذه الافكار الرئيسية يمكننا القول بأن الاساس الاول للايديولوجية الصهيونية ، هو الموضوعة القائلة بأن اليهود المتفرقين في العالم ، يشكلون أمة ، وان هذه الامة تتطلع منذ الفي سنة للعودة الى أرض فلسطين واقامة دولتها .

ان وثيقة اعلان قيام دولة اسرائيل الصادرة في ١٥ ايار ١٩٤٨ تدعي بأن « الشعب اليهودي الذي طرد من دولة اسرائيل قد بقي وفيا لدولته في جميع بلدان تشتته ، وانه كان يصلي دوما للعودة اليها ، متأملا باستعادة حريته القومية . ولقد كان اليهود الذين تملكهم هذا الرابط التاريخي يبذلون دوما الجهود الشاقة ، خلال قرون متعاقبة للعودة الى أرض أجدادهم واعادة بناء دولتهم »(٢) .

انه من غير المجدي التأكيد كثيرا على زيف موضوعة « الامة اليهودية » ، فالامم « ليست أزلية بمعنى أنها تتشكل في زمان ومكان معينين،ثم تخلد عبر العصور والازمنة، غير متأثرة بتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم »(٣). ان الامة هي نتاج تطور اجتماعي تاريخي ، تنشأ نتيجة للروابط الاقتصادية المتكونة ، ولتحول الاسواق المحلية الى سوق وطنية موحدة ، مكونة لغة واحدة وأرضا واحدة وثقافة واحدة . ان الادعاء بأن اليهود يشكلون امة ثابتة عبر التاريخ لا يمكن له أن يثبت أمام اي مفهوم علمي للامة . فهذه « الامة » المزعومة ، تفتقر للحد الادنى من العوامل الضرورية — والمتفق عليها علميا — لوجود الامة . ان « بنسكر » نفسه يعترف بأن « الشعب اليهودي ينقصه أغلب العوامل التي تشكل الشرط الذي لا غنى عنه لوجود الامة »(٤). ومع هذا فهو يصر على ان « الامة اليهودية » موجودة بسبب « وحدة التكوين الروحي » لليهود ، و« ماضيهم التاريخي الواحد » و« دينهم الواحد » . . . الخ وهكذا تحل العوامل الميثولوجية محل العوامل العلمية . فحتى وحدة الدين هي قضية نسبية تماما . فالدين لم يكن في يوم من الايام ميزة من ميزات الامة . فمواطنو أمة واحدة في بلد واحد ، يمكن أن ينتموا — وهم عادة ينتمون — الى مختلف المذاهب الدينية .

وتشكل موضوعة « الامة اليهودية » التي تتطلع منذ الفي سنة للعودة الى صهيون ، وبناء دولتها ، احدى التزييفات الفاضحة للتاريخ . فالرجوع الى المعطيات العلمية يثبت أن مجمل ما حصل في حياة ومصير الشعب اليهودي القديم مماثل الى حد ما ، لطبيعة قيام وتطور دول عهد العبودية . فقد كان ذلك العهد ، هو عهد الحروب القبلية المتواصلة التي كانت تنشب من أجل النهب وامتلاك العبيد والاستيلاء على أفضل الاراضي . وكانت اشكال الدولة تتعاقب ، والاقوام والقبائل تتخالط فيما بينها ، وتنتقل للعيش في البلدان المجاورة .

لقد سار الشعب اليهودي القديم أيضا ، على مثل هذا الدرب بوجه عام : كانت أراضي فلسطين في العهود القديمة تقطنها قبائل من الكنعانيين (قريبين جدا من اليهود من حيث الاصل لكنهم ليسوا يهودا) ، الذين كانوا قد بلغوا مستوى ثقافيا عاليا نسبيا . وهم بالذات الذين أسسوا مدينة القدس حسبما ذكر في مخطوطات تل العمارنة المكتوبة باللغة المسمارية والتي تعود الى نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد(٥). وفي نهاية القرن العاشر قبل الميلاد غزت أراضي فلسطين قبائل يهودية من البدو الرحل ، يعتقد أنها قد أتت من الجزيرة العربية ، حيث استطاعت القضاء على قسم من الكنعانيين ، ودمجت فيها القسم الآخر . اما الفلسطينيون الذين لم تكن لهم أية علاقة بالساميين فلقد تم التغلب عليهم على أيام داوود ، وبعد ذلك تم دمجهم .